قلب الأم

في تلك البقعة الفردوسية المظللة بأشجار الصنوبر، من منتزه بانوراما، قرب نبع كريمزان في بيت جالا عرفت دنيا لأول مرة.

لقد شاق طفلتها رندة أن تعابث كلبنا الذئبي الأشقر ، فراح يدور حولها ويقفز ويلعق يدها شاكراً تفضلها بمداعبته، فخشيته وصاحت فجأة تطلب النجدة، فأسرعت إليها أعنف الكلاب الجسور وأضمها مهدئة روعها..

وجاءت دنيا على الأثر وهي شابة في الثلاثين خفيفة الروح أنيقة الملبس وإن كانت لا تتمتع كثيراً بالجمال الباهر الذي تمتاز به الأسبانيات وأخذت تشجع طفلتها بصوت موسيقي وتمسح دموعها حتى سري عنها. وافتر ثغرها الوردي عن ثنايا مفترقة لؤلؤية..

كانت تتكلم بعربية تخالطها لكنة منطلقة وثابتة لذّ لي سماعها وضحكنا معاً.. ولقد أخبرتني أنها تعيش قريبة من مسكننا بمفردها. وأن زوجها رئيس فرقة الموسيقى في مصر.. ولا يستطيع زيارتها إلاّ بضعة أيام في إجازته الشهرية..

وكان يبدو أنها تشعر بالوحشة لبعدها عن وطنها الذي تركته ولقد لبت الدعوة إلى طاولتنا حيث أجلس وإخوتي.. وسر طفلتها رندة أن تجد بينهم من يلاعبها ويدللها.. وأدركنا المغيب وهي تأبى أن تبرح المنتزه حتى علمت أننا سنعود أدراجنا معاً..

وتوثقت بيننا الصداقة مع الأيام، رغم فارق السن وأضفى مرحها على عزلتي لوناً مشرقاً.. وأغرمت بالطفلة رندة وأغرمت بي.. وكم من صباح استيقظت على قبلاتها تناديني بلثغتها الملائكية أن أفيق لنذهب إلى المروج نقتطف الزهور الندية ونجعلها طاقات وأكاليل. فكانت تسبقنا وتجري وزقزقاتها الفرحة ترن في الفضاء كلما أبصرت بزهرة، فتعود بها إلي وعيناها شرارتان تتألقان ابتهاجاً.. وأما في المنزل فهي أبداً تشغلني برسم الصور الملونة، أو قص أشكال بالأوراق المزخرفة، أو أن أحكي لها حكاية من كتب الأطفال التي يستهويها صورها.. وكثيراً ما كنت أسمعها تعيدها بطلاقة عجيبة على أطفال الجيران، بلغة عربية يقصرون هم عن التعبير بمثلها. ما أسرع ما يتعلم الأطفال اللغة!

لقد اطمأنت دنيا إلى رندة تقضي جل وقتها بيننا، فإذا مـا انتهـت مـن أعمالهـا المنزلية هرعت هي الأخرى إلينا فنمضي وقتاً ممتعاً نقرأ المجلات، ونتناقش في المواضيع العامة والمشاكل السياسية التي تشغل بالنا. ثم نعود إلى الحـديث عـن رندة وما ينتظر لها من مستقبل باهر.. وكنت ودنيا نعقد عليها آمالاً كبرى، فلقـد كان ذكاؤها الوقاد ودبلوماسيتها الساذجة مثار العجب، ونموهـا الـذهني يـسبق عمرها بكثير.. ولكنها رغم ذلك كانت طفلة بكل ما في الطفولة من بهجة ومـرح وانفعال.. ولقد رزقت أما تحسن تفتيح ملكاتها ومواهبها ولاتترك فرصة تمر بغير أن تزيدها ثروة في الملاحظة والتعبير وقدرة على ضبط النفس والتحـرر مـن الخوف. لم تكن دنيا لترى للحياة معنى إلا من خلال عيني رندة وكم كنت أطرب وأنا أستمع إلى أغنية شجية تهدهد بها لرندة حتى تنام فكنت أستفـسرها معناهـا فأرى الدموع تجول في مآقيها وتقول:

- إنها من نظمي وليست متينة ولكنها على غرار ألحان أغاني اسبانيا الشهيرة..

لم رق النسيم وابتسمت الشمس وزقزقت العصافير؟
بعد ثورة الريح والكفهرار وجه السماء
وبلادي الحبيبة ممزقة الأشلاء
وأبناؤها نثر نازحو الأوطان؟
هل أينعت الزهور، حمراء قانية فوق الجبل
الاّ لأنها شبعت ريا من الدماء؟
أيها الربيع، يا سلام الطبيعة
لم لا نحظى بسلام بين البشر؟
كنت أنتظرك بصبر نافذ وارتقاب مشوق
من منزلي في ضاحية غرناطة
من بيتي الذي تركت فيه قلبي
إذ تلمس أغصان الأشجار العارية فتتوج بالنوار
وأقطف زهور أكليل الجبل
وتتنفس فتنفح الجو بالعطور

وتسير فتنبثق تحت أقدامك لجة اخضرار
وترقص فتزقزق العصافير مستبشرة بمقدمك
وتبتسم فيذوب الجليد ويسيل أنهاراً وينابيع
وتضحك فتنتعش الأرواح الذابلة
وتهرع الصبايا الوسيمات. بتنانيرها المكشكشة الفضفاضة المرتعشة، وقمـصانها الحريرية البيضاء
تراقص شباب إسبانيا ذوي المهاميز على نغمات القيثار
أما اليوم فستطأ قدماك أرضاً غسلتها الدماء
وتسمع عويل الدم النازف، وتمر بأمكنة قوضتها يد الدمار.
وأشباح نهكة ورماة مكفهري الوجوه
فكن عطوفاً أيها الربيع وهب بسخاء
مد إلى العالم يد رحيمة إن خلا من الرحمة قلب الإنسان
وأنت يا رندة يا كنزي الثمين
لترعاك ملائكة بأجنحة ضخمة
كوني كالربيع، ولاتنسي وطنك المسكين!

وراحت دنيا تجهش بالبكاء وتمنيت لو أستطيع أن أمسح آلامها وقد عقدت الدهشة لساني، فما كنت أظن أن دنيا تحمل من الهموم ما يبكيها، فهـي أبـداً ضـاحكة طروب ثم أخذت في ثورة انفعالها تخبرني عن أهلها الذين تركتهم إلى بيت لم يعد بيتها، لتجد نفسها مبتورة إلا من طفلتها رندة التي لم تر النور إلاّ بعد ولادة عسيرة قضي على دنيا بعدها أن لا تحمل طفلاً بغير أن تعرض حياتها للهـلاك.. ومـن زوجها رئيس فرقة الموسيقى الذي قضت الظروف أن تكون بعيدة عنه إلى حين. ولقد عرفته في زيارته، ورأيت ما يكن لها من حب عميق يقرب من العبادة، ولقد كان معتدل القامة وسيماً يشبه رندة بوجهه المربـع وأسـنانه المفترقـة وعينيـه الزرقاوين الحادتين، وكم قضينا من سهرات ممتعة في حديقتنا تحت شجرة زيتون وارفة تتخللها نجوم الكهرباء يعزف لنا فيها على القيثار، أو نلعب الورق ونتحدث في خليط من اللغات بينما رندة وإخوتي الصغار يمرحون بين أحواض الأزهار.

* * *

ولم يزل هذا شأننا معاً حتى صدر أمر بنقلهم إلى مكان آخر وكان وداعـاً حـاراً عند المطار. ولقد بكت رندة كثيراً كأنما حدثتها نفسها أن لن ترانا، أو أنها تأثرت بالكآبة التي تعلو وجوهنا والابتسامات المفتعلة. وكان آخر ما تراءى لنا والطائرة تتحرك، وجهها ويدها الصغيرة وهي تهتف وتتلوى بين ذراعي أمها "لا أريـد أن أذهب لا أريد!"

وتبادلنا الرسائل زمناً، ومرت أعوام ونحن نتلقى صورة لرندة بعد صورة فنغتبط كأنما نراها لا تزال بيننا.. وتخبرنا دنيا عن دخولها المدرسة وعن تفوقهـا، ثـم فترت المراسلة بيننا وكادت تنقطع. وذات يوم تسلمت رسالة من دنيا وعلات نفسي بصورة جديدة لرندة ولكن وأسفاه لقد علمت أن أمنيتي غدت عزيزة بعد أن تحطم النموذج الحي.

ووجمت، وخيل إلي أن هذه الحياة خرقاء، وأنها حقاً ابنة العماء.. ورحت أرثـي للأم التي سكبت عصارة روحها في تلك الطفلة فيأبي الموت إلا أن يفجعها فيها..

لقد أحببت رندة كما أحبتها أمها ورعيت طفولتها وأغنت نفسي بثروة من ذكريات عطرة، فكان حزني صادق العنف.. ولكنني رغم ذلك لم أستطع أن أتصور الأمر على حقيقته.. فلقد كانت رندة في خيالي لا تزال تلعب وتمرح في مـروج بيـت جالا.

ولقد عادت الرسائل تترى من دنيا، انها تبحث عن قلب أحب رندة فتتحدث معـه عنها. لم تعد تستطيع أن تحيا لنفسها، وهل وجدت المرأة إلاّ لتدفع بأمانة الحيـاة إلى براعم يانعة؟ كان لها هدف كان لها موضوع تضحية.. أما الآن ففراغ كل ما يحيطها وظنت أن الأيام تعزيها. ولكنني أخطأت التقدير.

ومنذ أيام وصلتني رسالة من زوجها، وفيها صورة طفلة كتب عليها "رندة الثانية" وأخبرني ذلك الرجل المفجوع بلهجة دامية كيف أبت دنيا إلاّ أن تحمل طفلاً آخر رغم ما أنذرها به الأطباء فكان لها ما أرادت وكانت دنيا فداء لرندة الثانية!!!

* * *